فلسطين الغد

الدكتور نبيل شعث

منذ سنتين تكلم مندوب فتح الى مؤتمر القاهرة لنصرة الشعوب العربية فأعلن باسم الثورة الفلسطينية « نحن نقاتل اليوم في سبيل اقامة دولة فلسطينية ديمقراطية يعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم ... مسلمين ومسيحيين ويهودا في مجتمع ديمقراطي تقدمي ، ويمارسون عباداتهم واعمالهم مثلما يتمتعون بحقوق متساوية » واردف البيان قائلا « ان ثورتنا الفلسطينية لتفتح قلبها وفكرها لكل بني الانسان الذين يريدون أن يعيشوا في المجتمع الفلسطيني الحر الديمقراطي وان يناضلوا في سبيله بصرف النظر عن اللون او الدين او العرق»(١). وتبع هذا البيان بيان ادلت به الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين وآخر ادلت به الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وعدد آخر من البيانات ادلت به فتح . وكان بيان القاهرة هذا اول اعلان صريح كامل عن مفهوم حركة المقاومة الجديد لفلسطين الغد . لكن هذا المفهوم لم يكن بالتأكيد رؤيا جديدة تماما ، فقد كان الفلسطينيون منذ الثلاثينات من هذا القرن يأملون في اقامة دولة فلسطينية موحدة ديمقراطية متعددة الاجناس تضمهم والمستوطنين اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين . وقد ورد ذلك في الشهادة المقدمة الى لجنة بيل عام ١٩٣٧ وكررته وفود رسمية الى المؤتمرات . وذكر للمرة الاخيرة في العام ١٩٤٨ خلال وساطة برنادوت(٢). غير أن طرد الفلسطينيين العرب من وطنهم الى ارض الشتات المأسوية قضى على هذه الرؤيا وعلى التسامح الذي تشتمل عليه . واصبح حلم الفلسطيني منذ العام ١٩٤٨ حتى العام ١٩٦٨ « العودة » الى الفردوس المفقود وانقاذ هويته القومية من الدمار والذوبان الكاملين . اما بالنسبة للفلسطيني الذي بقي في ارضه ، فقد اصبحت رؤياه الخلاص من الاضطهاد ومن كونه مواطنا من الدرجة الثانية ومن العبودية الاقتصادية والسياسية . كان المعذّب والمضطهد ، بالنسبة للفلسطينيين المشردين في الشتات او الخاضعين للحكم الاسرائيلي ، يهوديا ، فالعضوية في الهستدروت او الكيبوتز او الموشاف تقتصر على اليهود ، واصحاب الارض يطردون منها لتتسع لليهود ، وقانون العودة يعطي حق المواطنة فورا لليهود الذين يأتون من اي جزء من أجزاء العالم ولليهود فقط . ولم يكن دايان يفعل شيئا غير تكرار الادعاءات القديمة عندما قال في العام ١٩٦٧ : « اننا نريد دولة يهودية مثلما يريد الفرنسيون دولة فرنسية »(٣). وقد كانت الدولة اليهودية تدعم بالاموال اليهودية والمهاجرين اليهود والنفوذ السياسي اليهودي وبالتعصب اليهودي. واثناء ذلك ، كانت خطط الدولة اليهودية تتجاهل الفلسطيني العربي . فقد كان هناك ، بالنسبة لاسرائيل زانغويل ولحاييم وايزمان من بعده « بلد يدعى فلسطين ، بلد بلا شعب ... »(٤). ويلاحظ أوري افنيري أن هرتزل لم يذكر عرب فلسطين مرة واحدة في كتابه « الدولة اليهودية » ، فقد كان العربي ، بالنسبة لهرتزل ، « الرجل غير المنظور »(٥). وقد أجاب حاييم وايزمان على سؤال وجهه له البرت اينشتاين بغضب